ربِّ ارجعون

حقوق الطبع محفوظة

طبعة مزيدة ومنقحة

الطبعة الأولى

١٤٣٣ هجري – ٢٠١٢ ميلادي

الطبعة الثانية

١٤٤٠ هجري – ٢٠١٨ ميلادي

الطبعة الثالثة

١٤٤٤ هجري – ٢٠٢٣ ميلادي

رقم الإيداع: ٣٥٥٦ / ٢٠١٢م

الترقيم الدولي : **I.S.B.N**

٩٧٨-٩٧٧-٤٤١-٨٧٣-٣

ربِّ ارجعون

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

مجدي الهلالي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقَـدّمَة

رب يسِّر وأعِن يا كريم

إيقاظ القلب أولًا

الحمـد لله رب العالمـين، والصلاة والسـلام عـلى المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فلو أن طالبًا في السـنة النهائية من دراسـته الجامعية ظلَّ مستيقظًا طيلة ليلة اختباره الأخير ليستذكر ويراجع المنهج المقرر عليه، ثم أراد أن ينام سويعات قليلة بعد صلاة الفجر وحتى موعد ذهابه لأداء الاختبار، وأوصى والدتـه بـضرورة إيقاظـه في الوقت المحدد، وظلـت والدته مسـتيقظة حتى حان ذلك الوقت، فذهبت إليه فوجدته يغُطُّ في سُـبات عميق، فنادت عليه لتوقظه فلم يسـتيقظ، فأخـذت تُذكّره بأهمية ذهابه للاختبار وتُخوِّفه من الرسوب، ومِن ثَمَّ التخلُّف فصلًا دراسيًّا آخر، وما يترتب على ذلك من تأخر التخرج وتأجيل للكثير من المشـاريع الحياتية التي تنتظر إنهاءه لدراسته.. كل ذلك وصاحبنا لا يسمع كلامها، بل ظل مسـتغرقًا في نومه، فانتقلت في حديثها عن المستقبل المشرق الذي ينتظره بعد تخرجه، وكيف أنها تُرتِّب له مع والده أمر الزواج، و...

فهل تظن -أخي القارئ- أن هــذه الطريقة التي تنتهجها تلك الأم ستجدي نفعًا في إيقاظ ولدها ومِن ثَم ذهابه في الموعد المحدد للاختبار؟!

أتخيلك - أخي القارئ - وأنت تجيبني قائلًا: وكيف سيسمعها وهو نائم؟!

كيف ســيؤثر فيه هذا الكلام مهما جمع من الترغيب والترهيب وهو غارق في النوم؟

إن الحل الأمثل لإيقاظه هو القيام بهزِّه مرات ومرات حتى يستيقظ، فإن لم يُجْدِ الهزُّ نفعًا فعلى الأم أن تنتقل إلى اســتخدام وســائل أشد وأشد حتى يستيقظ ويدرك حقيقة الوضع الخطير.. حينها سنجده يسابق الزمن لتجهيز نفسه واللحاق بالاختبار.

هذا المثال البدهي ينطبق إلى حد بعيد على حالنا وطريقة تعاملنا مع اختبــار الدنيا، بمعنى أننا جميعًا لم نوجد في هذه الحياة لنأكل أو نشرب أو نتزوج أو نلهو، بل لأمر عظيم، ألا وهو: عبادة الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٦، ٥٧].

فالله جل شــأنه لم يخلقنا إلا لذلك، وسواء شــئنا أم أبينا فالاختبار يجري كل يوم، ونهايته تقترب بقدر مرور الأيام والليالي، وبلوغها الأجل

المحدد لكل فرد، وبعد ذلك سنعود إلى الله رضينا أم أبينا: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

إن الليل والنهار لا يتوقفان عن التعاقب، والنهاية المحددة لكل عبد في الدنيا تقترب ومع ذلك لا نرى من أحوالنا ما يدل على ذلك: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنبياء: ١]. أتدري أخي لماذا؟! لأن قلوبنا تغُط في سُبات عميق: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٢، ٣].

فما العمل في هذه المصيبة؟

لو عدنا لمثال الأم ومحاولتها لإيقاظ ابنها وأسقطناه على واقعنا لوجدنا أن الحل ينبغي أن يبدأ بهز القلب مرات ومرات حتى يستيقظ من رقدة الغافلين، ويفيق من سكرة اللاهين، وبدون هذه الطريقة فلن تكاد تُجدي الوسائل الأخرى نفعًا.

ومن أهم الوسائل التي يمكنها أن تهز القلب وتوقظه من سُباتِه: الإكثار المتوالي من تذكُّر الموت، والتنوع في استخدام الأساليب التي تحقق ذلك، ويكفيك في تأكيد هذا المعنى قول رسول الله ﷺ: «**أَكْثِرُوا**

ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذّاتِ فَمَا ذَكَرَهُ عَبْدٌ قَطُّ وَهُوَ فِي ضيقٍ إلّا وسَّعَهُ عَلَيْهِ وَلَا ذَكَرَهُ وَهُوَ في سَعةٍ إلَّا ضَيَّقهُ عَلَيْهِ..»[١].

وعن صفية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن امرأة أتت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لتشكو إليها القسوة، فقالت: أكثري ذكر الموت يرق قلبك، وتقدرين على حاجتك، قالت: ففعلت؛ فآنست من قلبها رشدًا، فجاءت تشكر لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا [٢].

وقال عمر بن عبد العزيز لرجل: أكثِر ذكر الموت؛ فإنك لا تذكره عند واسعٍ من الأمر إلا ضيَّقه عليك، ولا عند ضيِّقٍ من الأمر إلا وسَّعه عليك.

وكتب إلى بعض أهل بيته: أما بعد؛ فإنك إذا استشعرت ذكر الموت في ليلك ونهارك بَغَّض إليك كل فانٍ، وحبَّب إليك كل باق، والسلام.

وقال شميط بن عجلان: من جعل الموت نُصب عينيه لم يُبال بضيق الدنيا ولا بسعتها[٣].

---

(١) صحيح ابن حبان تحقيق الشيخ شعيب الأرنؤوط رحمه الله: كتاب الجنائز باب ذكر العلة التي من أجلها أمر بالإكثار من ذكر الموت (٧/ ٢٦٠) الترمذي في الزهد باب ما جاء في ذكر الموت (برقم: ٢٣٠٧) ابن ماجه في الزهد باب ذكر الموت والاستعداد له (برقم: ٤٢٥٨) النسائي في الجنائز باب كثرة ذكر الموت تحقيق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله (٤/ ٤ برقم: ١٨٢٤).

(٢) ذكر الموت لعبدالحق الإشبيلي (ص: ٤١).

(٣) منهاج القاصدين لابن الجوزي (٣/ ١٤٢٩، ١٤٣٠)، دار التوفيق للنشر- دمشق.

وكما أســلفنا لكي يتحقق المستهدف من ذكر الموت في الانتقال من حالة الغفلــة إلى اليقظة فإن ذلك يحتاج إلى الإكثــار والتتابع والتنوع في الوسائل وبخاصة في البداية، ويؤكد هذا المعنى أبو حامد الغزالي فيقول:

اعلم أن خطر الموت عظيم، وإنما غفل الناس عنه لقلة فكرهم فيه، وذكرهم له، ومن تذكَّره منهم فإنما يذكره بقلب غافل مشغول بشهوات الدنيا لا بقلب فارغ، فلهذا لا ينجح ذكر الموت فيه.

والطريق في ذلــك: أن يفرغ العبد قلبه عــن كل شيء إلا عن ذكر الموت الذي هو بين يديه، فإذا باشر ذكر الموت قلبه فيوشك أن يؤثر فيه، وعند ذلك يقل فرحه وسروره بالدنيا، وينكسر قلبه[1].

والصفحات القادمة تطرح –بإذن الله– وســيلة إضافية من وسائل تذكر الموت[2] وهي تخيل الأحداث والمشاهدات التي قد تمر بالواحد منا بعد موتــه، والأمنيات التي يتمنى تحقيقها لــو أُجيب طلبه بالرجوع إلى الدنيا مرة أخــرى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

(١) المصدر السابق (٣/ ١٤٣٠).

(٢) وسائل تذكر الموت كثيرة منها: زيارة المقابر وبخاصة مقابر الأقارب والأصدقاء، وزيارة أقسام الطوارئ والحوادث والرعاية المركزة بالمستشفيات، وكتابة الوصية التفصيلية، وشراء الكفن، والاستماع إلى المواعظ، والقراءة في كتب الرقائق مثل «التوهم» للمحاسبي، و«التبصرة» لابن الجوزي، و«التذكرة» للقرطبي.

ليلة في القبر

منذ اللحظات الأولى التي يولد فيها الإنســان ويطأ فيها الوجود؛ يبدأ العد التنازلي لحياته، ويومًا بعــد يوم يقترب من أجله، إلى أن يلاقي الموت مع آخر يوم في عمره... ولا يســتطيع الإنسان -أي إنسان- مهما بلغت قدراته وإمكاناته وسلطانه أن يفر من الموت: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ﴾ [الجمعة: ٨]. فالموت آية من آيات الله قهر بها عباده: ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الواقعة: ٦٠].. بل وتحداهم ســبحانه وتعالى بها فقــال: ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الواقعة: ٨٣ - ٨٧].

ولا يزال التحدي مستمرًا لجميع البشر، فلو لم نكن عبيدًا مقهورين بإرادة الله عَزَّوَجَلَّ لاستطعنا أن نُعيد الروح إلى الجسد ولَـمنَعْنَا ملك الموت من أخذها..

إن عجلة الزمن تتحرك بنا جميعًا نحو أجلنا وسيأتي علينا -لا محالة- يوم نعاين فيه سكرات الموت.

لحظة عصيبة

إنها لحظات عصيبة تلك التي يرى الواحد منا فيها ملك الموت، وقد جاء لقبض روحه، ومن خلفه إما ملائكة الرحمة وإما ملائكة العذاب... عندها سيتأكد أن الأمر جدٌ لا هزل فيه: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ١٤﴾ [الطارق: ١٣، ١٤] .. وستصبح أمنيته الوحيدة العودة مرة أخرى إلى الدنيا لا لشيء إلا للتوبة والعمل الصالح: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٠٠﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

بين النوم واليقظة

ليتخيل كل منا نفسه في هذا الموقف الرهيب وهو يتمنى أن يُمنح مهلة للعودة إلى الدنيا -ولو للحظات- ليصلح فيها ما أفسده، ويعيد فيها كل حساباته.. فيُرفض طلبه، وتُقبض روحه، ويأتي المغسل فيغسله ويكفنه، ثم يحمله الأهل والأصحاب إلى المسجد فيصلون عليه، وبعدها يذهبون به إلى قبره فيضعونه في حفرة ضيقة، ثم يغلقونها عليه بالتراب وينصرفون عنه فيصبح وحيدًا في بيته الجديد الذي كان ينادي عليه كل يوم قائلًا: أنا بيت الدود، أنا بيت الوحدة، أنا بيت الوحشة... **هذا ما أعددت لك فماذا أعددت لي؟!**

وكأن لسان حاله يقول: هذا المكان الموحش سيكون بيتي؟! وسأظل فيه إلى قيام الساعة؟! كيف سأعيش فيه هذه المدة أم كيف سأطيقه؟!

عندها يتذكر ما كان يسمعه في الدنيا من أن تجهيز القبر وتعميره لا يكون إلا بالأعمال الصالحة، وبقدر رصيد العبد منها يكون مستوى التجهيز والتعمير كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤].

شريط الذكريات

ليتخيل كل منا نفسه بعد أن فوجئ بالظلمة والوحشة والضيق، وهو يستعرض شريط ذكرياته في الدنيا وحجم الأعمال الصالحة التي قام بها ولماذا لم يجد لها أثرًا واضحًا في حياته البرزخية؟

يبدأ بالصلاة فيقول: أين أثر صلاتي؟!

لقد صليت كثيرًا فلماذا لا أكاد أجد أثرًا لذلك؟! فيتذكر أنه كان لا يحافظ عليها في أول وقتها، بل كان يصلي أغلبها وسط ضجيج الأطفال وصوت المذياع والتلفاز، وفي حالة أدائها بالمسجد يكون الذهن مشغولًا بموضوعات شتى، وكم من المرات كان يُفاجأ بالإمام وهو يسلم تسليمة الختام؟

فإذا به يخاطب نفسه:

إذن فما سمعته عن الصلاة كان صحيحًا من أنه: ليس للمرء من صلاته إلا ما عقل منها[١].

فالله عَزَّوَجَلَّ لا يريد حركات الجوارح من قيام وقعود دون حضور القلب وخشوعه فيها، وكذلك في كل العبادات:

﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ﴾ [الحج: ٣٧].

فالقلب هو محل نظره سبحانه وتعالى كما قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ وَلَا إِلَى صُوَرِكُمْ، وَلَكِن يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»[٢].

---

(١) عن عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إِنَّ الرَّجُلَ لَيَنْصَرِفُ، وَمَا كُتِبَ لَهُ إِلَّا عُشْرُ صَلَاتِهِ، تُسْعُهَا، ثُمُنُهَا، سُبُعُهَا، خُمْسُهَا، رُبُعُهَا، ثُلُثُهَا، نِصْفُهَا»** أبو داود كتاب الصلاة باب ما جاء في نقصان الصلاة (١/ ٥٠٣ برقم: ٧٩٦) النسائي في الكبرى باب في نقصان الصلاة (١/ ٣١٦ برقم: ٦١٤، ٦١٥) ابن حبان كتاب الصلاة باب ذكر البيان بأن المرء يكتب له بعض صلاته إذا قصر في البعض الآخر (٥/ ٢١٠ برقم: ١٨٨٩) مشكل الآثار للطحاوي (٣/ ١٣٦ برقم: ١١٠٣).

(٢) مسلم في البر والصلة والآداب باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله باب ١٠ (برقم: ٢٥٦٤) ابن ماجه (برقم: ٤١٤٣).

أين أثر الصيام؟

فإذا كان هذا هو حال الصلاة، فماذا عن الصيام؟ أين أثره في قبري؟

فيتذكر الواحد منا كيف كان يمر عليه شهر رمضان وكيف كان مفهومه للصيام فيقول:

لقد كان همي وفكري في كيفية انقضاء ساعات اليوم، فالامتناع عن الطعام والشراب كان أمرًا شاقًّا عليّ، لذلك كنت أعمل جاهدًا على شغل وقتي بما يلهيني عن التفكير فيهما، فأنام أغلب النهار، وأقضي الوقت المتبقي في مشاهدة التلفاز وما فيه من أعمال تُغضب الله عَزَّوَجَلَّ.

لقد سمعت كثيرًا وأنا في الدنيا أحاديث للرسول ﷺ من أنه «**رُبَّ صَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ صِيَامِهِ الْجُوعُ وَالْعَطَشُ**»(١).

و«**مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ للهِ حَاجةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهَ وَشَرَابَهَ**»(٢).

وكأني تناسيت هذا كله، فلم أترك الغيبة والنميمة في رمضان، ولم أغض بصري عما حرم الله.

---

(١) ابن ماجه (برقم: ١٦٠٩) والنسائي في الكبرى (برقم: ٣٣٣٣) وابن خزيمة (برقم: ١٩٩٧) والحاكم (برقم: ١٥٧١).

(٢) البخاري (برقم: ١٩٠٣) وأبو داود (برقم: ٢٣٦٢) والترمذي (برقم: ٧٠٧).

القرآن هو الأمل

إذا كان هذا هو حال الصلاة والصيام فليكن أملي في القرآن..

أين هو؟!! لقد قرأته وختمته مرات ومرات.. فلماذا لا أجد أثره؟!

نعم تذكرت، لقد كنت أقرأه وأنا مشغول البال، شارد الذهن، فلم أتفكر في معانيه، ولم أقف عند أحكامه وحدوده، ولم أتخذه مصدرًا للهداية والشفاء.

ومما يزيدني ألمًا وحسرة؛ أنني كنت أسمع وأنا في الدنيا الكثير من الآيات والأحاديث التي تحثُّني على تدبر القرآن والتأثر به لتحصيل الهُدى والشفاء، وتذُمُّ من يقرؤه وهو غافل، كقوله تعالى:

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩]، وقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤]، وقول رسول الله ﷺ: «**إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ مِنَ اللَّيْلِ، فَاسْتَعْجَمَ الْقُرْآنُ عَلَى لِسَانِهِ، فَلَمْ يَدْرِ مَا يَقُولُ فَلْيَنْصَرِفْ فَلْيَضْطَجِعْ**»(١).

وقوله ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وهو يوضح له سبب نهيه عن قراءة القرآن في أقل من ثلاثة أيام:

---

(١) مسلم: صلاة المسافرين وقصرها باب أمر من نعس في صلاته أو استعجم عليه القرآن أو الذكر بأن يرقد أو يقعد حتى يذهب عنه ذلك. أبو داود كتاب الصلاة باب النعاس في الصلاة (برقم: ١٣١١).

«لَا يَفْقَهُهُ مَنْ يَقرؤهُ فِي أَقَلَّ مِنْ ثَلَاثٍ»[١].

لقد كنت أسمع وأقرأ هذه الآيات والأحاديث وغيرها ولا أتفاعل معهـا، وكنت دومًا أجتهـد في إقناع نفسي بأن قـراءة القرآن ما هي إلا وسيلة لتحصيل الأجر والثواب فقط، ومِن ثَم فلا بأس من تلاوته دون فهم ولا تعقل.

ولكني اليوم أُسأل: لماذا لم يُر لقراءتك أثرٌ في قولك ولا سلوكك؟!

رصيد الحسنات

ثم ليتخيل كل منا نفسه وهو يحاول أن يتذكر أي عمل صالح قام به فلا يجد إلا اليسـير، وفي المقابل؛ يجد رصيده من السيئات كبيرًا، فيتذكر حاله مع والديه، كيف كان يعاملهما، وبخاصة عند كبر سـنهما، وازدياد حاجتهما إليه...

لقد نسـينا ما فعلوه من أجلنا ونحن صغـار حتى أصبحنا رجالًا ونسـاءً نحمل الشهادات ويُشـار إلينا بالبنان، ولولاهما -بعد فضل الله عَزَّوَجَلَّ- لكنا غير ما كنا.. وبدلًا من برهما، والعمل على رد بعض جميلهما

(١) أبو داود في الصلاة باب في كم يقرأ القرآن (برقم: ١٣٩٠) والترمذي في القراءات باب في كم يختم القرآن (برقم: ٢٩٥٠) وانظر التبيان في آداب حملة القرآن بتحقيق عبده الكوشك (ص: ٧٧).

كان جزاؤهما غلظة في الكلام وسرعة الضجر والضيق من أفعالهما، وعدم تلبية طلباتهما.. لنتذكر ذلك وليقل كل واحد منا لنفسه: أنا لم أفكر يومًا في إدخال السرور عليهما، بل أسقطتهما من حساباتي، وتناسيت حقوقهما عليَّ... لقد أغلقت بيدي بابًا عظيمًا من أبواب الخير[١].

ثم لنتذكر الأقارب من أشقاء وأخوال وأعمام وفروعهم، ونتذكر كيف كانت صلتنا بهم محدودة، إن لم تكن مقطوعة، فيقول الواحد منا لنفسه: لقد كنت أسمع كثيرًا عن أهمية صلة الرحم، وأنها تُبارك العمر وتُنمي الرزق، ولكني تغافلت عن ذلك الخير العميم، خوفًا مما قد يكلفني من مال ووقت، ويا ليتني ما فعلت ذلك.. لقد كانت مقاييس السعادة مختلة عندي.. كنت أظنها في جمع المال والاستمتاع بالحياة دون النظر للوظيفة العظيمة التي خلقنا الله عَزَّوَجَلَّ من أجلها.

لقد لهثت وراء الدنيا أجمع المال.. لم أفكر يومًا في الإنفاق على الفقراء والمساكين والمجاهدين خوفًا من الفقر.

كانت خواطري تدور حول كيفية الاستمتاع بالحياة، وكنت دائم

---

(١) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**رَغِمَ أَنْفُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ**»، قِيلَ: مَنْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**مَنْ أَدْرَكَ أَبَوَيْهِ عِنْدَ الْكِبَرِ، أَحَدَهُمَا أَوْ كِلَيْهِمَا فَلَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ**» رواه مسلم كتاب البر والصلة والآداب باب رغم أنف من أدرك أبويه أو أحدهما عنده الكبر فلم يدخل الجنة (برقم: ٢٥٥١). ورغم أنف: أي ذل وهان، وخص عند الكبر لضعفهما ومزيد احتياجهما إلى المساعدة والمعونة.

الســهر مع زوجتي وأولادي أمام الفضائيات وما تبثه من مشاهد تغضب الله جل شأنه، ولا نتركه إلا في ساعة متأخرة من الليل.. لقد كنت أظن أنني بذلك أُسعد نفسي وأهلي ولكنني تأكدت الآن بأني قد ظلمتهم أيما ظلم.

ولم يقتصر الأمر على هذا وفقط، بــل كنت أُنفق الكثير من المال في الاحتفال بالمناســبات التي لا تمت للإســلام بصلة كرأس السنة وشم النسيم وغيرها..

ذكريات مريرة

.. لم أتــزوج من تعينني على أمر دينــي، بل بحثت على من هي على شــاكلتي فأعانتني على أمر دنياي، وقامت بتربية أولادي على أمر الدنيا، والحرص على مصالحهم الشــخصية فقط، فلا بأس من الكذب إن كان يؤدي إلى تحقيق منفعة أو دفع مضرة، ولا مانع من وضع المال الزائد عن حاجتنــا في بنك ربوي ما دام ذلك يصــب في مصلحتنا ويزيد من رأس مالنا..

.. لم أفكــر يومًا في أمر زوجتي بالزي الشرعي الســابغ الفضفاض الذي لا يصف ولا يشــف.. لم أمنعها من الاختلاط بالرجال، وكثيرًا ما كانت تستقبل معي الأقارب والأصدقاء.

.. حبي الشـــديد للدنيا وحرصي على تحصيل أكبر قدر منها جعلني أحســـد الآخرين على ما أوتوه منها، فكلما ذهبت إلى الفراش أجد ذهني مشـــغولًا بأحوال غيري، وأجد في نفسي ضِيقًا وغـــمًّا كلما أصاب الخير أحدًا حولي، وأُسَرُّ وأفرح إذا فقدوا هذا الخير أو أصابهم مكروه.

.. يسرت لأولادي الكثير من أســـباب الراحة والنعيم ظنًّا مني أني بذلك أســـعدهم.. أدخلتهم مدارس اللغات الأجنبية التي تهمل تعليم اللغة العربية كلغة أساســـية.. ألحقتهم بالنـــوادي وكنت أُقاتل من أجل إشراكهم في أكبر قدر من أنشـــطتها المفيدة وغـــير المفيدة، ولم أهتم كثيرًا بالذهاب بهم إلى المساجد، وربطهم بها، وتحبيبهم فيها..

.. كنت أنام حزينًا مكتئبًا عندما ينهزم الفريق الذي أشـــجعه، ولا تهتز لي شعرة أو تسقط مني دمعة عندما تبلغني مصيبة من المصائب التي حلَّت بالمسلمين في فلسطين أو كشمير أو بورما أو تركستان أو...

كنت معجبًا بنفسي وقدراتي ولا أكاد أترك مجلسًـــا إلا وتحدثت فيه عن أمجادي وتاريخي وقدراتي وعائلتي ونسبي..

.. لم أفكر يومًا في أحوال المسلمين، وما يعانون من ظلم واضطهاد وقتل وتشريد، مع أن الأبواب كانت أمامي مفتوحة لمد يد العون إليهم..

لم أضع يدي في يد العاملين للإســـلام، فخوفي من التبعات -بكل أشـــكالها- جعلني أنصرف عنهم، بل وكثيرًا ما كنت أســـتهزئ بهم مع المستهزئين وأرميهم بالتهم كي أبرر لنفسي القعود عن نصرة الإسلام..

أي غفلة كنت غارقًا فيها؟ والملكان الموكلان بي يسودان الصفحات، ويحصيان عـــليَّ كل شيء لحظة بلحظة، ويومًا بيـــوم، وإذا ما ذكَّرني أحد بذلك غرقت في بحـــر الأماني بأن الله غفور رحيـــم، ويكفيني أن أحج البيت الحرام بعد بلوغي ســـن التقاعد فأعود من ذنـــوبي كيوم ولدتني أمي.... ويالها من سذاجة.

• • •

حسرات

ليتخيل كل واحد منا نفسه بعد أن مر به شريط الذكريات وهو يقول: يا حسرتى على الفرص التي ضاعت مني، وعلى السنين التي قضيتها بعيدًا عن الله..

لقد ظلمتك يا نفس أيما ظلم عندما آثرت رضاك واتبعت هواك، فتركت الكثير والكثير من الأعمال الصالحة لأنها كانت تتعبك، ولهثت وراء الدنيا من أجل تحصيل ما يرضيك..

.. لم أرفض لك طلبًا ظنًّا مني أنني بذلك أسعدك، ويا ليتني ما فعلت ذلك، فاليوم لا أجد إلا نتاج أعمالي السيئة، ولا أرى أثرًا يُذكر لأعمالي الصالحة..

يا نفس

فيا نفس أيهما كان أحسن لك: الصبر على طاعة الله في الأيام القليلة التي قضيناها في الدنيا ثم يعقب ذلك راحة ونعيم لا نهاية لهما، أم العكس؟!

لقد بخلت عليك بالنعيم المقيم عندما آثرت رضاك وتبعت هواك، ولو أني جاهدتك وفطمتك عن الشهوات وألزمتك طاعة الله لكنت الآن أتنعم بروضة من رياض الجنة، ولكنت منتظرًا بشوق ولهفة قيام الساعة لدخول جنات الرحمن وما فيها من نعيم، ولكن هل ينفع اليوم الندم؟!

لقد أقام الله علينا الحُجة كاملة؛ فالقرآن الذي كان بين أيدينا حدثنا عن كل شيء سيحدث لنا، وحذرنا من خطورة الانغماس في الدنيا، والتعلق بها، وأخبرنا بنبأ من سبقنا لنعتبر بهم، وللأسف لم تنفعنا العبرة، بل أصبحنا ممن يُعتبر بهم.

أين كان عقلي عندما انشغلت بتحصيل متاع الدنيا الزائل، وتركت المهمة التي من أجلها خُلقت؟!

أي شيطان رجيم هذا الذي زين لي حب الدنيا والتمتع بزخارفها والحرص عليها؟!..

أي عداوة تلك التي كان يُكنُّها لي فجعلتُه لا يفارقني ليلًا أو نهارًا فيُزيِّن لي فعل المحرمات وترك الواجبات، ولم يتركني إلا عند نزع الروح لتأكده من نجاحه في مهمته.. لقد حذّرنا ربُّنا مرارًا من هذا اللعين فقال: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦﴾ [فاطر: ٦].

.. وأنتِ يا نفس؛ لقد كنتِ عونًا للشيطان عليَّ، فلقد استغل جهلك وحبَّك للمال وولعك بالشهوات وطلبك للعلو والرفعة عمن حولك فجعلك سلاحه الذي سيطر به على قلبي وإرادتي.. فبإلحاحك المستمر دفعتيني لفعل ما تريدين، فحقَّقَ كل مآربه مني عن طريقك أنتِ ..

.. أتذكرين كم من المرات عزمتُ فيها على الصيام تطوعًا لله فمنعتيني بدعوى الخوف من الصداع والإعياء؟!

وكم من الليالي حاولت فيها القيام لله فزينت لي طيب المنام، فينقضي الليل دون أن أفوز بالغنيمة التي يمنحها الله لعباده المتهجدين في كل ليلة؟!

أتذكرين ماذا كنت تفعلين بي عندما أسمع صوت المؤذن لصلاة الفجر وضميري يؤنبني عندما يردد: الصلاة خير من النوم .. ألا تذكرين إلحاحك لمواصلة النوم، وتزيينك لي طيب الفراش وحلاوة الراحة؟ لقد ضيعتِ عليّ هذه الصلاة في وقتها فنادرًا ما صليتها قبل شروق الشمس، وقلما صليت سُنتها التي قال عنها رسول الله ﷺ: «**رَكْعَتَا الْفَجْرِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا**»[1]... خير من المال والوظيفة والطعام والشراب

(١) البخاري: التهجد باب تعاهد ركعتي الفجر ومن سمَّاها تطوعًا (برقم: ١١٦٩) مسلم: (برقم: ٧٢٥) صلاة المسافرين وقصرها باب استحباب ركعتي سنة الفجر والحث عليها وتخفيفها؛ أبو داود كتاب الصلاة باب ركعتي الفجر (برقم: ١٢٥٤).

والزوجة والأولاد، والذهب والفضة..

لم أدرك قيمة هذا الكلام إلا الآن بعد أن رأيت الحال هنا، وانكشف الغطاء أمامي فوجدت الدنيا بأسرها لا تساوي شيئًا ينبغي الحرص عليه إلا طاعة الله عَزَّوَجَلَّ.. لقد شغلتيني يا نفس باللهو واللعب ومجالس اللغو والغيبة والنميمة والكذب والتفاخر، وكلما ذكرتك بالموت وأننا صائرون إليه لا محالة ضقت ذرعًا، وعملت جاهدة على صرف الذهن إلى أمور أخرى كي لا ينغص هذا الأمر عليك تمتعك باللذائذ والشهوات..

ضاع كل شيء

لقد ضاع كل شيء، ضاع تعبي ولهثي وراء المال، لقد انشغلت بتأمين مستقبل أولادي في الدنيا ونسيت تأمين مستقبلي ومستقبلهم الحقيقي هنا في القبر، وهناك في دار الخلد..

لقد اتضح لديَّ الآن بعد أن انكشفت الغشاوة عن عيني، ورأيت الدنيا على حقيقتها، أن مفهومي للمستقبل لم يكن صحيحًا.. فالمستقبل الحقيقي للإنسان يبدأ بعد الموت، فمهما جمع من مال في الدنيا فسيتركه، ومهما أحب من شيء فيها فسيفارقه... أما الذي يبقى فهو الطاعات: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف: ٤٦].

فوامصيبتاه على ما ضاع مني من فرص لتأمين مستقبلي الحقيقي، وواحسرتاه على ثواب صلاة الجماعة الذي فاتني[١].

ويا خيبة أملي عندما ضاعت مني فرصة بناء بيت في الجنة بصلاة اثنتي عشرة ركعة كسنن رواتب للصلوات الخمس[٢].

ويا عظيم خسارتي عندما فاتتني فرصة التبكير لصلاة الجمعة[٣].

لم أستفد بتحصيل ثواب حجة وعمرة تامتين حين لم أجلس في المسجد أذكر الله تعالى بعد صلاة الصبح إلى أن تطلع الشمس ثم أصلي ركعتين بعدها[٤].

---

(١) عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ قال: «**صَلَاةُ الْجَمَاعَةِ أَفْضَلُ مِنْ صَلَاةِ الْفَذِّ بِسَبْعٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً**». البخاري: الأذان باب فضل صلاة الجماعة (٢/ ١٣١) مسلم (١/ ٤٥٠) المساجد ومواضع الصلاة باب فضل صلاة الجماعة وبيان التشديد في التخلف عنها.

(٢) عن أم المؤمنين أم حبيبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصَلِّي لِلَّهِ كُلَّ يَوْمٍ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً تَطَوُّعًا، غَيْرَ الْفَرِيضَةِ، إِلَّا بَنَى اللهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ**» رواه مسلم (١/ ٥٠٢، ٥٠٣) صلاة المسافرين وقصرها باب فضل السنة الراتبة قبل الفرائض وبعدهن.

(٣) عن أوس بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: « **مَنْ غَسَّلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَاغْتَسَلَ، وَ بَكَّرَ وَابْتَكَرَ، وَمَشَى وَلَمْ يَرْكَبْ، وَدَنَا مِنَ الإِمَامِ، واسْتَمَعَ وَلَمْ يَلْغُ كَانَ لَهُ بِكُل خُطْوَةٍ عَمَل سَنَةٍ أَجْرُ صِيَامِهَا وَقِيَامِهَا**» أبو داود (برقم: ٣٤٥) والترمذي (برقم: ٤٩٦) والنسائي (برقم: ١٣٨١).

(٤) عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ صَلَّى الْفَجْرَ فِي جَمَاعَةٍ ثُمَّ قَعَدَ يَذْكُرُ اللَّهَ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ كَانَتْ لَهُ كَأَجْرِ حَجَّةٍ وَعُمْرَةٍ تَامَّةٍ تَامَّةٍ تَامَّةٍ**» الترمذي (برقم: ٥٨٦).

ضاعت مني فرصة صيام التطوع، فكل يوم يصومه العبد يباعد بينه وبين النار سبعين خريفًا[١].

يا خيبة أملي في أولادي، لقد تركوني وحيدًا، ولما أجد أثرًا لدعائهم لي كأنهم نسوا أني أبوهم وأحتاج إلى دعائهم.

الاستثمار النافع

ليتني أنفقت الكثير مما كان يزيد عن حاجتي من المال في سبيل الله، فهـذا هو الرصيد الحقيقي الذي ينفع العبـد... لقد ضاعت مني فرصة استثمار مالي عند الله... لقد كان المقابل سبعمائة ضعف، والله يضاعف لمن يشاء.. كيف كنت غافلًا عن هذا الخير العميم؟!

أي غشاوة تلك التي كانت على عيني؟! وأي صدأ كان على قلبي؟!

القرآن مـليء بالآيات التي تحثنا على الإنفاق في سـبيل الله رحمة بنا وتأمينًا لمسـتقبلنا، لقد اسـتقرضني الله عَزَّوَجَلَّ ليطفئ بإنفاقي خطاياي، وينوِّر قبري، ويظلنـي بظل هذا الإنفاق يوم القيامـة، ولكني أبيت إلا إمسـاك المال، فنفسي كانـت تخوفني دائمًا من الفقـر والمجهول... فأي

(١) قال رسول الله ﷺ: «**مَا مِنْ عَبْدٍ يَصُومُ يَوْمًا فِي سَبِيلِ الله إِلَّا بَاعَدَ اللَّهُ بِذَلِكَ الْيَوْمِ وَجْهَهُ عَنْ النَّارَ سَبْعِينَ خَرِيفًا**» البخاري: الجهاد باب فضل الصوم في سبيل الله (٦/ ٤٧) مسلم: الصيام باب فضل الصيام في سبيل الله لمن يطيقه بلا ضرر ولا تفويت حق (٢/ ٨٠٨).

تعاسة وأي كرب، وأي ندامة أشعر بها وأنا أتذكر قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ١١﴾؟! [الحديد: ١١].

يا مصيبتاه على تضييعي لوقتي دون ذكر الله، فالذكر عبادة خفيفة لا تحتاج إلى كثير معاناة.

يا حسرتاه على القرآن الـذي تركته مهجورًا، فلم أداوم على قراءته ولم أتفكـر في معانيـه ولم أتخلق بها، وضيعت على نفـسي فرصة عظيمة للتغيير الحقيقي الذي يُرضي الله عَزَّوَجَلَّ.. لقد سهرت ليالي كثيرة من أجل الحصول على شهادات تنفعني في الدنيا لتخدم سيرتي الذاتية، ولم أشأ أن أُتعِب نفسي لنيل شـهادة القرآن، والتي يمتد نفعها إليَّ هنا في قبري، بل وهناك في دار الخلد حيث يأتي القرآن شفيعًا لصاحبه الذي كان يعمل به.

يا ليتني قدمت لحياتي

ليتني استبدلت المصايف التي كنت حريصًا على مداومة التنزه فيها بالسفر إلى بيت الله الحرام لأداء الحج والعمرة فأكفِّر عن سيئاتي، وأجلو الصدأ عن قلبي، وأزوده بالتقوى والإيمان[1].

(١) عن جابر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَدِيمُوا بَيْنَ الحَجِّ والعُمْرَةِ فَإِنَّهُمَا يَنْفِيانِ الفَقْرَ والذُّنُوبَ كَمَا يَنْفِي الكِيرُ خَبَثَ الحَدِيدِ**». الطبراني في الأوسط (برقم: ٤٩٧٧) وانظر مجمع الزوائد (برقم: ٥٧٢٠).

ليتني اتبعت ســنة رسول الله ﷺ... ماذا ســأقول له حينما أراه يوم القيامة؟

ليتنــي قمت بواجب الدعوة إلى الله والأمــر بالمعروف والنهي عن المنكر، وشاركت العاملين للإسلام عملهم في سعيهم لتحكيم شرع الله في سائر شئون الحياة.

ليتني استمعت لنصيحة سيد المرسلين عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عندما قال: **«الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَــهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَــوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ»**[1].

يا ليتني قدمت لحياتي

• • •

(١) الترمذي (برقم: ٢٤٦١) وابن ماجه (برقم: ٤٢٦٠) والحاكم (برقم: ١٩١).

مشاهدات

وبعد أن مــر علينا شريط الذكريــات، وازداد ندمنا وحسرتنا كلما تذكرنا الفرص التي أضعناها لتأمين مستقبلنا؛ ليتخيل كل منا نفسه وهو يشــاهد أحوال بعض الموتى الذين أطاعوا الله ورســوله واستفادوا من عمرهــم في غرس الكثير من الأعمال الصالحة مما مكنهم من جني ثمارها بعد مماتهــم، فقبر الواحد منهم على مد البصر وهــو فيه يتقلب متنعمًا في روضة من رياض الجنة، وليس ذلك فحسب؛ بل إنه يرى مقعده ومكانه وقصــوره في الجنة وما فيها من حور عين وطعام وشراب وفاكهة وخدم فيزداد اشتياقه إلى قيام الساعة.

الكثير من هؤلاء الســعداء كانوا من الفقــراء الذين تزدريهم أعين الناس، لكنهم لم يكونوا مجهولين عند ربهم... فهذا كان من أهل المساجد، لا تكاد تفوته تكبيرة الإحرام، وهذا كان من أهل قيام الليل المســتغفرين بالأســحار... وهذا كان يتصدق ويبالغ في إخفاء الصدقة حتى لا تكاد شماله تعلم ما أنفقت يمينه..

أما هذا فقد شغله التفكر في القرآن وإطالة النظر في معانية عن النوم

فصحبه في قبره ونوَّره ووسَّعه عليه..

وهذا كان من العاملين للإســلام المجاهدين في سبيله، الساعين في خدمة الناس وتخفيف معاناتهم مع الأخذ بأيديهم إلى الله جل شأنه..

أما هذا فلــه وضع خاص.. لقد أبــت الأرض أن تحلل لحمه، أما روحه فهي في حواصل طير خُضر معلقة في العرش تســبح في الجنة وقتما شاء..

إنه الشهيد!!

يا لسعادته ويا لفرحته.. ويالحسرتي، فلقد كان يمكنني أن أصل إلى ما وصل إليه لو كنت قد عقدت العزم على ذلك، وســألت الله الشهادة بصدق وعزم أكيد كما قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ سَأَلَ اللهَ تَعَالَى الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ بَلَّغَهُ اللهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ، وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ**»(١).

يــا لفرحة هؤلاء جميعًا بهــذا النعيم الذي يتقلبــون فيه، والذي لا يساوي شــيئًا بجوار ما سيرونه هناك في دار الخلد... لقد زرعوا ما طلبه الله منهم أن يزرعوه فحصدوا فوق ما تخيلوه.. أما أمثالي فلم يحصدوا إلا الغم والضيق، وصحبة عمله السيئ في حفرة ضيقة مرعبة.

(١) مسلم: الإمارة باب استحباب طلب الشهادة في سبيل الله تعالى (٣/ ١٥١٧).

القبور المظلمة

ولكن مالي أرى أغلب القبور مظلمة؟ ماذا كان شـأن أصحابها في الدنيا؟

لقد كنـت أظن أنني على صواب عندما كنـت أرى حالي في الدنيا كحال الغالبية العظمى من الناس، ولكن للأسـف الشديد كان هؤلاء جميعًا في غفلة مثلي كـما وصفهم ربهم: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١ - ٣].

لقد انخدعوا ببريق الدنيا فآثروا شـهواتهم على رضا ربهم فكانت النتيجة تلك القبور المظلمة التي تمتلئ على أصحابها نارًا..

لقد كانوا لا يتورعون عن فعل الموبقات، فهذا كان يشرك بالله، يَنْذُر لغيره، ويذهب للسحرة والكهنة ويتلمس النفع من أصحاب الأضرحة، وهذا كان تـاركًا للصلاة، عاقًّـا لوالديه، قاطعًا لرحمـه.. وهذه كانت تتجسس على جيرانها، وتمشي بالنميمة وسط الناس.. وهذا أدمن الكذب وظلـم الناس وأكل حقوقهـم.. وهذه كانت تخرج مـن منزلها متعطرة كاشفة شعرها وجزءًا من جسدها.

أحصاه الله ونسوه

لقد أحصى الله كل شيء: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩].. فالملكان الموكلان بتسجيل أعمال كل فرد لم يغفلا عن عملهما ولو للحظة واحدة كما أخبرنا ربنا: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٨].

ومع كل ما يحدث هنا في الحياة البرزخية من ضيق وظلمة وعذاب فإنه لا يساوي شيئًا مذكورًا بجانب ما سيحدث في الآخرة.

فالكثير من هؤلاء من أصحاب القبور المظلمة والأعمال السيئة يرون مقعدهم من النار وما أُعد لهم من صنوف العذاب:

﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٦].

يبحثون عن طعامهم فيها فيجدوه:

﴿شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ [الدخان: ٤٣ - ٤٦].

فإن طلبوا الماء وجدوه: ﴿كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف: ٢٩].

فراشهم وغطاؤهم من النار: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١].

عذابهم لا يُطاق: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾﴾ [المزمل: ١٢، ١٣].

يتمنون فيها الموت ولكن هيهات هيهات:

﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟
وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا
كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾﴾ [فاطر: ٣٦].

يرون هذا كله فيزداد غمهم وكربهم فيقولون يا رب لا تُقِم الساعة.

أمنية الجميع

الكل بلا استثناء يتمنى العودة إلى الدنيا ولو للحظة يسبح الله فيها تسبيحة أو يسجد فيها سجدة.. لقد أيقنوا بأنهم قد ظلموا أنفسهم وخدعتهم الدنيا بزخرفها، وتأكدوا من حقيقة عداوة الشيطان لهم، وأنه عدو حاقد حاسد لا يترك العبد إلا إذا تأكد من أنه صائر إلى النار.

خدعهم إمهال الله لهم وعدم عقابهم الفوري على ذنوبهم، وغرهم ستره المرخي عليهم فظنوا أن الأمر سيكون كذلك بعد الموت كما قال

صاحب الجنتين: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ [الكهف: ٣٦].

وتناسوا قول الله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

الآن تذكَّروا نداءات ربهم المتكررة لهم في كتابه بسرعة العودة إليه والتصالح معه قبل فوات الأوان:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر: ٥، ٦].

ولكن هل ينفع اليوم الندم؟!

﴿فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الطور: ١٦].

• • •

حلم العودة

وبعد أن استعرضنا شريط الذكريات وانكشفت الحقيقة أمامنا وتبين لنا كم كنا مخدوعين في الدنيا، زاهدين في بضاعة الآخرة، وتأكد لدينا أننا قد ظلمنا أنفسنا عندما سرنا وراء رغباتها، ولم ننهها عن هواها فلقد أسعدناها لحظات يسيرة، سعادة وقتية يشوبها الكدر، اشترينا بهذه اللحظات مصيرًا بالغ السوء هنا في القبر وهناك في الآخرة، ويا ليت لهذا الكرب نهاية ...

وفي المقابل فلقد رأينا حال من ألجم نفسه بلجام التقوى، وخاف مقام الله عَزَّوَجَلَّ، وصبر قليلًا على طاعة ربه في الدنيا فأعقب ذلك راحة وسعادة أبدية.

ليتخيل كل واحد منا مقدار الحسرة التي تملؤه على الفرصة التي ضاعت منه، ثم ليتخيل أنه يُمنِّي نفسه بأنه سيعود مرة أخرى إلى الدنيا فيقول: لماذا لا أحلم بأن الله عَزَّوَجَلَّ قد منحني بالفعل فرصة أخرى للعودة إلى الدنيا فكيف سيكون حالي فيها بعد ما رأيت ما رأيت؟ بالتأكيد أن حالي سيكون مختلفًا اختلافًا كليًّا عما كنت عليه قبل الموت.

مع الصلاة

سـأكثر من الخُطى إلى المساجد، وسأسابق الناس إلى الصف الأول في الصلاة، وسأحشـد كل معاني الخشـوع فيها، وسأقف لخواطر الدنيا بالمرصاد، ولن أسمح للشيطان بسرقة شيء من صلاتي..

لن أترك سنة مؤكدة أو مستحبة إلا وأديتها..

سأُحيي جزءًا معتبرًا من ليلي بالذكر والصلاة والاستغفار..

سأجعل الموت نُصب عيني، وسأنتظر مجيئه في أي لحظة، فإذا ما أصبحت فلن أتوقع العيش حتى المساء، بل سأعتبر أن كل يوم ينشق فجره هو آخر يوم لي في الحياة، وكل صلاة أدخل فيها هي صلاة مودع للدنيا..

سـأهجر المعاصي فلن أُرَى في مجلس لهو أو لغـو، ولن أتكلم إلا بالخير والإصلاح بين الناس..

سأسـعى في طلب الرزق لتوفير قوتي وقوت عيالي ولكن دون لهث أو ركض وراء المال.

سأنفق قدر وسعي واستطاعتي في سبيل الله سرًّا وجهرًا، وسأحرص على أن يُدَوَّن اسـمي مـع المنفقين كل يوم عنـد الله عَزَّوَجَلَّ لأنال رضاه -سـبحانه- وأنال كذلك دعوة الملك الذي يقـول كل صباح: «**اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا**»[1].

(١) يقول رسول الله ﷺ: «**مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ، إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ** =

سأحيا بالقرآن

.. سأداوم على حضور مجالس العلم النافعة المقربة إلى الله، وسيكون لي وردٌ يوميٌّ من القرآن أحافظ عليه مهما كانت ظروفي، ولن يكون همي هو الانتهاء منه فقط، بل سأتفكر في آياته، وسأعيش معها، وسأستمع إليها كأنني المخاطب بها، وسأستخلص منها دروسًا عملية أصبغ بها حياتي، فالقرآن منهج حياة وكتاب هداية.

.. سأطيع والدَيَّ، وسأحسن إليهما بكل ما أستطيع..

سأصل رحمي وإن قطعوني، وسأعطي من حرمني، وسأعفو عمن ظلمني، فليس هناك وقت للعتاب أو الانتقام.

سآمر بالمعروف وسأنهى عن المنكر، ولن أخاف في الله لومة لائم، وسأصبر -بعون الله- على ما سألاقيه من أذى الناس، سأقول للظالم كفى ظلمًا، وسأنتصر للحق ولو على نفسي أو أقربائي..

مع أهلي

سألزم زوجتي وبناتي الحجاب الشرعي السابغ الساتر، وسأُربي

= أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا» البخاري الزكاة باب قول الله تعالى ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦﴾ (٣/ ٣٠٤). مسلم (٢/ ٧٠٠) الزكاة باب في المنفق والمُمسك.

أولادي على حب الإســـلام والعمل من أجـــل رفعته، وأن يكونوا قدوة صالحة أينما كانوا، وسأحرص على تعليمهم ما يحتاجونه من علوم الدين، وكذلـــك علوم الدنيا من طب وهندســـة وزراعـــة و...، دون أن تكون نياتهـــم فيها طلب العلو في الأرض بل ليُصلحوا الدنيا بالدين، وليقدموا للناس الصورة الطيبة للمسلم في معاملاته وأخلاقه وكفاءته، فلن يتقدم المســـلمون إلا إذا التزموا بدينهم، وكانوا عبيـــدًا مخلصين لله، وفي نفس الوقـــت كانوا عالِمين بزمانهم، فلا ينبغي أن يكونوا في وادٍ والناس في وادٍ آخر...

ومع حرصي على تعليمهم علوم الدنيا ســـأعمل على أن يكونوا من أهل كتاب الله المتفكرين في آياته، العاملين به، فالقرآن زينة المرء في الدنيا، ونوره في قبره، وشفيعه يوم القيامة... أهله هم أهل الله وخاصته.

.. سأزرع فيهم حب الجهاد في ســـبيل الله، والرغبة الأكيدة في نيل الشهادة لعل واحدًا منهم ينالها فيكون سببًا للشفاعة في سبعين من أهله.

أما بناتي فســـأربيهن على أن يكن زوجات صالحات، تعين الواحدة منهن زوجها على طاعة الله، وتقول له حين تودعه في الصباح: اتق الله فينا فإنا نصبر على الفقر ولا نصبر على النار.

سأعوِّدُهم جميعًا -بمشيئة الله- على عدم النظر إلى من هو أعلى منهم

شـــأنًا في الدنيا، بـــل ينظرون إلى من هو أقل منهم ليستشـــعروا نعمة الله عليهم.

ســـأُكثر من الحديث معهم حول نعم الله علينا ليتمكن حب الله من قلوبهم، وسأرفع شـــعار «احفظ الله يحفظك» ليخافوا مقام الله ويرجوا مثوبته.

ســـأقيم الإســـلام في بيتي، فلن يُســـمع فيه غناء خليع أو موسيقى ماجنة، ولن يُفتح التلفاز إلا لمشاهدة المفيد النافع، أو الترويح اليسير عن القلوب دون التعرض لما يغضب الله عَزَّوَجَلَّ.

.. ســـنعمل جميعًا على الاســـتيقاظ قبل الفجر نتهجد ونتضرع لله عَزَّوَجَلَّ وقت السحر لنفوز بجزء من الغنيمة التي يمنحها الله -سبحانه- لعباده المتهجدين كل ليلة.

.. ســـأربيهم جميعًا على عدم الســـخرية من أحد أو الاستهزاء به، وسأزرع فيهم عقيدة أن ميزان التفاضل بين الناس هو تقوى الله، فليس للشـــهادات أو المناصب أو الســـن أو النسب شـــأن في تميز شخص عن شخص عند الله عَزَّوَجَلَّ.

.. سأوجههم كذلك إلى عدم احتقار أي مسلم مهما ولج في المعاصي فالخاتمة مجهولة، ولعل الله عَزَّوَجَلَّ يطلـــع على قلب العاصي فيجد فيه ذلًّا

وانكسارًا وخوفًا منه سبحانه وتعالى فييسر له سبل الهدى ويختم له بخير، وفي المقابل فقد يرى سبحانه في قلوبنا كِبرًا وغرورًا فيختم عليها، ويحبط أعمالنا فتكون الخاتمة سيئة والعياذ بالله..

وسأعلمهم أنه إذا مَنَّ الله عَزَّوَجَلَّ على واحد منهم بالالتزام بفضيلة أو عزيمة فلا ينبغي أن يشعر بأفضليته على غيره ممن لم يقم بها، فهذا مدخل خطير للإعجاب بالنفس مما يسبب حبوط العمل، فرُب معصية أورثت ذلًّا وانكسارًا خيرًا من طاعة أورثت عُجبًا واستكبارًا.

سباق نحو الجنان

لن أتنافس مع أحد من أجل الدنيا، فمن زاحمني في شيء منها تركته له، وفي المقابل سأتنافس مع المتنافسين في عمل الآخرة، وسأتسابق معهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ كما أخبرنا مولانا: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾ [آل عمران: ١٣٣].

.. سأحرص على اتباع سنة الحبيب المصطفى ﷺ في كل صغيرة وكبيرة ما استطعت، وأهم سنة ينبغي عليّ اتباعها السير على خطاه والتأسي به فيما فعله مع قومه حتى استطاع بإذن الله أن يقيم دولة الإسلام الأولى التي بسطت نفوذها على مشارق الأرض ومغاربها في سنوات معدودة.

أنقذ غيرك

.. سـأكون رفيقًا بالناس، باشًّـا في وجوههم، متلطفًا في دعوتهم، وسأرفع شـعار (أصلح نفسك، وادع غيرك)، فأغلبهم نيام وبحاجة إلى من يوقظهم ويبصرهم بحقيقة الدنيا، وهذا لن يتأتى إلا باستعمال الرفق واللين معهم كما أرشـدنا الله جل شأنه: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

لا للعزلة

.. لن أعتزل الناس بحجة شـيوع الفساد، فالذي يخالطهم ويصبر على أذاهم خير من الـذي لا يخالطهم ولا يصبر عليهم كما أخبرنا بذلك الحبيب المصطفى ﷺ، فلو تركنا الناس فيما هم فيه، ولم نحاول إصلاحهم لأثمنا بتركنا واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

مع الناس

سأفشي السلام وأطعم الطعام وأجيب دعوة من دعاني، وسأعود المريض، وأغيث الملهوف، وسأسعى في خدمة الأرملة والمسكين وكل محتاج..

سـأتقن عملي وما تخصصت فيه، وسـأكون قدوة لغـيري في الصدق والأمانة والوفاء بالوعد.

سأعمل على إقامة دولة الإسلام المنشودة والتي غربت شمسها منذ عشرات السنين، وهذا لن يتأتى بالأماني والأحلام، بل بالعمل الدؤوب المتواصل، والذي يبدأ بإصلاح نفسي أولًا، وسأضع يدي في يد العاملين للإسلام الذين يقتفون أثر الرسول ﷺ في كيفية إقامته للدولة الأولى.

سأقوم بواجب الدعوة إلى الله في كل وقت، وسأعمل على التخلق بقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ [مريم: ٣١].

لن أتصرف تصرفات حمقاء تؤدي إلى نفور الناس من الإسلام، بل سأدعو إلى الله على بصيرة، وسأراعي فقه الواقع والأولويات في تعاملي معهم.

لن أستعجل نصر الله.. فالنصر له وقته المحدود وسنته الجارية، فهو أولًا وأخيرًا من عند الله: ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٢٦]، ولن يتنزل على عباده المؤمنين إلا إذا استكملوا شروطه والتي من أهمها نصرة الله على نفوسهم: ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴾ [محمد: ٧]، وكذلك حسن الإعداد واستنفاد الأسباب المتاحة: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ ﴾ [الأنفال: ٦٠].

سأكون دائم الاهتمام بأحوال المسلمين في كل مكان، وسأتتبع بصفة خاصة أخبار فلسطين والمسجد الأقصى.

مع النفس

.. سأقف لنفسي بالمرصاد.. فلن أعجب بحالي، ولن أغتر بعبادتي.. وسأقاوم محاولاتها لدفعي إلى الإعجاب بها والشعور بتميزها على الآخرين... سأُخوِّفُها من حبوط العمل وسوء الخاتمة، وسأجاهدها دومًا على لزوم الصدق والإخلاص.

.. سأغض بصري عما حرم الله، وسأحفظ لساني من الغيبة والنميمة والكذب وسائر الآفات، وسأجعله رطبًا بذكر الله..

.. وسأحرص على حضور قلبي مع لساني وقت الذكر..

.. سأعمل دائمًا على تصحيح نيتي وتنقيتها من الشوائب، فلن أقوم بعمل خوفًا من الناس أو حياءً منهم، أو طلبًا لمنزلة عندهم، فجميعهم لا يملكون لي ولا لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا، أما عملي فأثره هو الذي سيبقى معي بعد الموت، لذلك سأعض عليه بالنواجذ.

.. لن أنام إلا على توبة واستغفار فلعل روحي تُقبض أثناء نومي.. وسأكون دومًا على استعداد نفسي للقاء الموت، وسأكتب وصيتي لأهلي وأولادي، وسأضع كفني في دولابي.

.. لن أيأس من رحمة الله ولن أقنط إذا ما غلبتني نفسي يومًا فارتكبت معصية أو تركت واجبًا، بل سأسارع بالتوبة والإنابة إلى الله، وأُتبع السيئة

الحسنة لتمحها كما وعدنا مولانا: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤].

ضرورة التوازن والاعتدال

ومع هذا كله فسأكون بمشيئة الله معتدلًا ومتوازنًا في أموري كلها، فأعطي البدن حقه من النوم والراحة والاستجمام، وأعطي زوجتي حقها وكذلك الأولاد، فلن أكون عبوسًا معهم، ولن أضيق عليهم، فالإسلام دين الوسطية لا يصادم الفطرة بل يُلبي احتياجاتها في إطار لا يفسدها.. وكما أن التفريط مذموم فكذلك الإفراط والتشدد فكلاهما على طرفي الوسط.

.. وسأضع دائمًا حديث رسول الله ﷺ نصب عيني والذي قال فيه لعثمان بن مظعون رضي الله عنه: «**يَا عُثْمَانُ! أَرَغِبْتَ عَنْ سُنَّتِي؟! فَإِنِّي أَنَامُ وَأُصَلِّي، وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَنْكِحُ النِّسَاءَ، فَاتَّقِ اللهَ يَا عُثْمَانُ! فَإِنَّ لأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِضَيْفِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَصُمْ وَأَفْطِر، وَصَلِّ وَنَمْ**»[1].

(١) أبو داود كتاب الصلاة باب ما يؤمر به من القصد في الصلاة (برقم: ١٣٦٩).

آداب العبودية

.. سأستعين بالله عَزَّوَجَلَّ على القيام بما أمرني به وترك ما نهاني عنه، وسألح عليه في السؤال ألا يكلني إلى نفسي طرفة عين، فهو -سبحانه- حين يترك الإنسان لنفسه فإنما يتركه للضعف والذنب والفجور:

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [النور: ٢١].

سأجتهد في الدخول عليه -سبحانه- دخول المسكين الفقير المفلس، وسأتضرع إليه تضرع من لا صلاح ولا فلاح له إلا بيده.. سأستغيث به استغاثة الملهوف المشرف على الغرق.

وسأعمل على شكر نعمه بقلبي وجوارحي ولساني.

مفهوم السعادة

فإذا ما سأل سائل: ولم تعذِّب نفسك كل هذا العذاب؟ وهل الالتزام بالإسلام يعني الحرمان وحبس النفس في هذا الإطار الضيق؟! فسأقول له: بل راحة نفسي وسعادتها أريد، فالسعادة التي يشعر بها العبد الطائع لربه، المتبع لأوامره لا تقتصر فقط على حياته بعد موته، بل هي بشرى له في الدنيا قبل الآخرة يذوق حلاوتها وينعم بها: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن

ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل: ٩٧].

فمن ثمار الطاعة الدنيوية: انشراح الصدر، ونور الوجه، وطمأنينة وراحة للبال، وسكينة للنفس، ولا يشعر بهذا كله إلا من ذاق حلاوة الإيمان.. فمن ذاق عرف: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٤].

فحقيقة السعادة التي يسعى إليها الناس هي سكينة النفس وراحة البال والبعد عن الهم والغم، ولقد كنت أيام كنت في الدنيا لا أشعر بهذه المعاني، فكل سبب دنيوي يجلب السعادة سرعان ما يزول أثره وتبقى النفس مضطربة، حائرة، تائهة في أودية الدنيا.

ولو افترضنا أن الأمر كما يعترض السائل بأنني سأحبس نفسي في إطار ضيق وسأحرمها من كثير من اللذات والشهوات فإن الأمر يستحق أكثر من ذلك، فالحياة هنا في القبر رهيبة: ضيق وظلمة ووحشة وألم.. ألا يستحق كل هذا وغيره التضحية بشهوات رخيصة؟!!

لقد انكشفت أمامي الحقيقة كاملة، فلن أطيع الشيطان، ولن أسير

وراء وساوسه، وسأجعل حياتي وحياة أولادي كلها لله قدر استطاعتي، وسأعمل على تأمين مستقبلهم، ولكن بفهم جديد للمستقبل.

.. لن أشـــغل ذهني بالتفكير في الرزق ومتطلبات الحياة المستقبلية، بل ســـأكون ابن وقتي، وسأغتنم أي فرصة للتزود بالتقوى، وسيكون لي مع مواسم الخير شـــأن آخر كيوم الجمعة، وشـــهر رمضان، وعشر ذي الحجة، وأيام الحج والعمرة، و... .

مَنْ سيوفي بوعده؟

.. وفي خضـــم هذه التخيلات وما فيها من وعود؛ إذ بنا نفيق فنجد أننا مازلنا في الدنيا ولم نغادرها، وإذا بالفرصة التي كنا نتمناها ونحلم بها ما زالت سانحة أمامنا.. فمن منا يا ترى سيوفي بوعده ويعمل على تحقيق حلمه، فيشمر عن ساعديه، ويقول كما قال الرسول ﷺ لخديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا يـــوم أن جـــاءه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ في غار حـــراء: «**مَضَى عَهْـــدُ النَّوْمِ يَا خَدِيجَةُ**».

.. ترى هل سنعتبر بما قد توهمناه، ونفعل ما عزمنا عليه، أم أن الأمر لن يعدو عن كونه تخيل وحُلم سرعان ما يزول أثره من النفس، ثم يعود كل منا إلى سابق حاله من الغفلة والسكرة بالدنيا لنُفاجأ بعد ذلك بملك الموت وقد جاء لقبض الروح، وساعتها لن ينفع الندم، ولن يُجاب لأحد

طلبه بالعــودة إلى الدنيا، والتاريخ خير شــاهد، والقــرآن أقوى دليل:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

[المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [المنافقون: ١٠، ١١].

• • •

من أخبار المحتضَرين

بعد هذه الرحلة التخيلية التي عشناها سويًا في الصفحات السابقة، والتي كانت تهدف -بإذن الله- إلى الأخذ بقلوبنا نحو اليقظة؛ ننقل إليك أخي القارئ في الأسطر القادمة أخبارًا لأحوال بعض المحتضرين من سلفنا الصالح لعلها تدفعنا -بعون الله- أكثر وأكثر نحو إفاقة القلب من غفلته ونهضته لتدارك ما فاته، والله المستعان.

وفاة أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

لما اشتد به المرض قيل له: ألا ندعو لك الطبيب؟ قال: «قد رآني» قالوا: فأي شيء قال لك؟ قال: قال: «إني فعال لما أريد»[1].

ويروى أنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما احتضر وابنته عائشة حاضرة فأنشدت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يومًا وضاق بها الصدر

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١/ ٣٤).

تقول: فنظـــر إليّ كالغضبان، ثم قال: ليس كذلـــك يا أم المؤمنين، ولكن قول الله أصـــدق: ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ ﴾ [ق: ١٩]. ثم قال: ياعائشة: إنه ليس أحد من أهلي أحب إليَّ منك، وقد كنت نحلتك حائطًا، وإن في نفسي منه شيئًا فردِّيه إلى الميراث. قالت: نعم، فرددته. وقال: أما إنا منذ ولينا أمر المســـلمين لم نأكل لهم دينارًا ولا درهمًا، ولكنا قد أكلنا من جريش طعامهم في بطوننا، ولبســـنا من خشن ثيابهم على ظهورنا، وليس عندنا من فيء المسلمين قليل ولا كثير إلا هذا العبد الحبشي، وهذا البعير الناضح، وجرد هذه القطيفة، فإذا مت فابعثي بهن إلى عمر، وابرئي منهن ففعلت، فلما جاء الرسول إلى عمر بكى حتى جعلت دموعه تسيل في الأرض، ويقول: رحم الله أبا بكر، لقد أتعب من بعده، رحم الله أبا بكر، لقد أتعب من بعده، رحم الله أبا بكر، لقد أتعب من بعده.

وأوصى أن تغسله زوجه أســـماء بنت عميس فغسلته، وصلى عليه عمر بن الخطاب في مســـجد رسول الله ﷺ، وحُمل على السرير الذي حُمل عليه رسول الله ﷺ، ونزل في قبره عمر وعثمان وطلحة وابنه عبد الرحمن بن أبي بكر، ودفن ليلًا في بيت عائشـــة مع النبي ﷺ، وجعل رأســـه عند كتفي رسول الله ﷺ، وألصقوا لحده بلحده، وجُعل قبره مسطحًا مثل قبر

النبي ﷺ ورُش عليه بالماء[١].

وفاة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه دخل على عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين طُعن فقال: أبشر يا أمير المؤمنين أسلمت مع رسول الله ﷺ حين كفر الناس وقاتلت مع رسول الله ﷺ حين خذله يعني الناس وتوفي رسول الله ﷺ وهو عنك راض ولم يختلف في خلافتك رجلان فقال عمر أعد فأعدت فقال عمر: المغرور من غررتموه، لو أن لي ما على ظهرها من بيضاء وصفراء لافتديت به من هول المطلع[٢].

وهذا عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحدثنا عن اللحظات الأخيرة في حياة الفاروق فيقول: أنا آخركم عهدًا بعمر، دخلت عليه، ورأسه في حجر ابنه عبد الله بن عمر فقال له: «ضع خدي بالأرض، قال: فهل فخذي والأرض إلا سواء؟ قال: «ضع خدي بالأرض لا أم لك»، في الثانية أو في الثالثة، ثم شبك بين رجليه، فسمعته يقول: «ويلي وويل أمي إن لم يغفر الله لي» حتى فاضت نفسه[٣].

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد (٣/ ١٩٧)، وتاريخ دمشق لابن عساكر (٣٠/ ٣٢٥).

(٢) تاريخ بغداد (٨/ ٢٩١)، وتاريخ دمشق لابن عساكر (٤٤/ ٤٢٩).

(٣) ابن سعد في الطبقات (٣/ ٣٦٠).

وفاة معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

لما وقع الطاعون بالشام قال معاذ: اللهم أدخل على آل معاذ نصيبهم من هذا. فطعنت له امرأتان فماتتا ثم طعن ابنه عبد الرحمن فمات. ثم طعن معاذ بن جبل فجعل يغشى عليه فإذا أفاق قال: اللهم غمني غمك فوعزتك إنك لتعلم أني أحبك. ثم يغشى عليه. فإذا أفاق قال مثل ذلك

وقال عمرو بن قيس: إن معاذ بن جبل لما حضره الموت قال: انظروا أصبحنا فقيل: لم نصبح. حتى أتي فقيل: أصبحنا. فقال: أعوذ بالله من ليلة صباحها إلى النار!

مرحبًا بالموت مرحبًا زائر حبيب جاء على فاقة!

اللهم تعلم أني كنت أخافك وأنا اليوم أرجوك، إني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكري الأنهار ولا لغرس الأشجار ولكن لظمأ الهواجر ومكابدة الساعات ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر

وقال الحسن: لما حضر معاذًا الموت جعل يبكي فقيل له: أتبكي وأنت صاحب رسول الله ﷺ وأنت وأنت فقال: ما أبكي جزعًا من الموت إن حل بي ولا دنيا تركتها بعدي ولكن إنما هي القبضتان فلا أدري من أي القبضتين أنا[1].

(١) أسد الغابة (ص: ١٠٢١)، وتاريخ دمشق (٢/ ٢٩٩)، وحلية الأولياء (١/ ٢٣٩).

وفاة بلال بن رباح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

عن سعيد بن عبد العزيز قال: قال بلال حين حضرته الوفاة: غدًا نلقى الأحبة محمدًا وحزبه، قال تقول امرأته: وا ويلاه. قال يقول هو: وا فرحاه[1].

وفاة أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

عن إبراهيم بن الأشتر، عن أبيه، عن أم ذر، قالت: لما حضرت أبا ذر الوفاة بكيت، فقال لي: ما يبكيك؟ فقلت: ومالي لا أبكي وأنت تموت بفلاة من الأرض، وليس عندي ثوب يسعك كفنًا لي ولا لك؟ قال: فأبشري ولا تبكي؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول لنفر أنا فيهم: «**لَيَمُوتَنَّ رَجُلٌ مِنْكُمْ بِفَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ تَشْهَدُهُ عِصَابَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**». وليس من أولئك النفر أحد إلا وقد مات في قرية وجماعة، فأنا ذلك الرجل، والله ما كَذَبْتُ ولا كُذِبْتُ، فأبصري الطريق. فقلت أنا وقد ذهب الحاج وتقطعت الطريق ؟ قال اذهبي فتبصري، قالت: فكنت أشتد إلى الكثيب، ثم أرجع فأمرضه، فبينما أنا وهو كذلك إذا أنا برجال على رحالهم كأنهم الرخم تخد بهم رواحلهم. قالت: فألحت بثوبي فأسرعوا

(٢) تاريخ دمشق (١٠/ ٤٧٥).

إليَّ حتى وقفوا عليَّ فقالوا: من هو؟ قالت: أبو ذر، قالوا: صاحب رسول الله ﷺ؟ قالت: نعم، ففدوه بآبائهم وأمهاتهم، وأسرعوا إليه حتى دخلوا عليه، فقال: أبشروا، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول لنفر أنا فيهم: «**لَيَمُوتَنَّ رَجُلٌ مِنْكُمْ بِفَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ يَشْهَدُهُ عِصَابَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**»، فما من أولئك النفر رجل إلا وقد هلك في قرية وجماعة، والله ما كَذَبْتُ ولا كُذِبْتُ. أنتم تسمعون أنه لو كان عندي ثوب يسعني كفنًا لي أو لامرأتي لم أكفن إلا في ثوب هو لي أو لها، إني أنشدكم الله ثم إني أنشدكم الله ألا يكفني رجل منكم كان أميرًا أو عريفًا أو بريدًا أو نقيبًا، وليس من أولئك النفر إلا وقد قارف ما قال إلا فتىً من الأنصار، فقال: أكفنك يا عم، أكفنك في ردائي هذا أو في ثوبين في عيبتي من غزل أمي. قال: أنت فكفني، فكفَّنه الأنصاري من النفر الذين حضروه، وقاموا عليه ودفنوه في نفر، كلهم يمان[1].

وفاة أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

عن جعفر بن زيد العبدي أن أبا الدرداء لما نزل به الموت بكى فقالت له أم الدرداء وأنت تبكي يا صاحب رسول الله ﷺ؟! قال نعم ومالي لا أبكي ولا أدري على ما هجم من ذنوبي.

(١) دلائل النبوة للبيهقي (٦/ ٤٠١)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر (١/ ٢٥٥).

وروي أنه لما نزل به الموت دعا أم الدرداء ضمها إليه وبكى وقال يا أم الـــدرداء قد ترين ما نزل بي من الموت إنه والله قد نزل بي أمر لم ينزل بي قط أمر أشـــد منه فإن كان لي عند الله خير فهـــو أهون ما بعده، وإن تكن الأخرى فـــوالله ما هو فيها بعـــده إلا كحلاب ناقة ثم بكـــى وقال يا أم الدرداء اعملي لمثل مصرعي هذا، يا أم الدرداء اعملي لمثل ساعتي هذه ثم دعا ابنه بلالًا فقال ويحك يا بلال اعمل لســـاعة الموت اعمل لمثل مصرع أبيك واذكر به صرعتك وساعتك.

وعن أم الدرداء أن أبا الدرداء لما احتضر جعل يقول من يعمل لمثل يومي هذا، من يعمل لمثل ساعتي هذه، من يعمل لمثل مضجعي هذا، ثم يقول: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ (١).

وفاة سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

عن أنس قال دخل ســـعد على ســـلمان يعوده فوجده يبكي قال ما يبكيك أبا عبد الله ألســـت قد صحبت النبي ﷺ؟ ألست ألست. قال: ما أبكاني صبابة الدنيا ولا كراهية الآخرة، ولكن رســـول الله ﷺ عهد إلينا عهدًا فـــلا أراني إلا قد تعديت، قال: وما عهد إليكم؟ قال: عهد إلينا أن يكون زاد أحدنا من الدنيا كزاد الراكـــب وما أراني إلا قد تعديت، وأمّا

(١) تاريخ دمشق (٤٧/ ١٩٧).

أنت يا سعد فاتق الله في حكمك إذا حكمت وفي قسمك إذا قسمت[١].

وعن بُقَيْرَةَ امرأة سلمان أنها قالت لما حضره الموت: دعاني وهو في علية له لها أربعة أبواب، فقال: افتحي هذه الأبواب فإن لي اليوم زوارًا لا أدري من أي هذه الأبواب يدخلون عليَّ، ثم دعا بمسك فقال: أديفيه في تور ثم انضحيه حول فراشي، فاطلعت عليه فإذا هو قد أُخذ روحه فكأنه نائم على فراشه[٢].

وفاة عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

عن الشعبي قال لما حضر عبد الله بن مسعود الموت دعا ابنه فقال: يا عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود إني موصيك بخمس خصال فاحفظهن عني: أظهر اليأس للناس؛ فإن ذلك غنى فاضل، ودع مطلب الحاجات إلى الناس؛ فإن ذلك فقر حاضر، ودع ما تعتذر منه من الأمور ولا تعمل به، وإذا استطعت أن لا يأتي عليك يوم إلا وأنت خير منك بالأمس فافعل، وإذا صليت صلاة فصل صلاة مودع كأنك لا تصلي صلاة بعدها.

وعن أبي طيبة الجرجاني قال دخل عثمان بن عفان على ابن مسعود وهو مريض قال: ما تشتكي قال: أشتكي ذنوبي، قال: فما تشتهي؟ قال:

(١) تاريخ دمشق (٢١/ ٤٥٠)، وحلية الأولياء، وتاريخ الإسلام للذهبي (٣/ ٥٢١).
(٢) سير أعلام النبلاء (١/ ٥٥٣).

أشتهي رحمة ربي. قال: أفلا ندعو لك طبيبًا؟ قال: الطبيب أمرضني. قال: أفلا نأمر لـك بعطائك؟ قال: لا حاجة لي به. قال: تتركه لبناتك؟ قال: لا حاجة لهن به[١].

وفاة معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا

يؤثر عنه رضي الله تعـالى عنه أنه لما حضرته الوفاة قال اللهم ارحم الشـيخ العاصي ذا القلب القـاسي اللهم أقلْ عثـرتي واغفر زلتي وعُد بحلمك على من لا يرجو غيرك ولم يثق بأحد سـواك، ثم بكى رضي الله تعالى عنه حتى علا نحيبُه[٢].

وفاة أبو موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

عن الضحاك بن عبد الرحمن بن عرزب قال: دعا أبو موسـى فتيانه حـين حضرته الوفاة قال: اذهبوا فاحفروا وأوسـعوا وأعمقوا. فجاءوا فقالوا: قد حفرنا وأوسعنا وأعمقنا. فقال: والله إنها لإحدى المنزلتين: إما ليوسعن عليَّ قبري حتى تكون كل زاوية منه أربعين ذراعًا، ثم ليفتحن لي باب إلى الجنـة فلأنظرن إلى أَزْوَاجِي ومنازلي وما أعد الله لي من الكرامة، ثم لأكونـن أهدى إلى منزلي مني اليوم إلى بيتـي، ثم ليصيبني من ريحها

(١) تاريخ دمشق (٣٣/ ١٨٦).

(٢) السيرة الحلبية (٣/ ١٣٧).

وروحها حتى ابعـــث.. وإن كانت الأخرى -ونعوذ بالله منها- ليضيقن علي قبري حتى يكون في أضيق من القناة في الزج، ثم ليفتحن لي باب من أبواب جهنم فلأنظرن إلى سلاســـلي وأغلالي وقرنائـــي، ثم لأكونن إلى مقعدي من جهنم أهدى مني اليوم إلى بيتي، ثم ليصيبني من ســـمومها وحميمها حتى أبعث[١].

وفاة سعد بن الربيع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

عن ابن إسحاق، قال: حدثنا محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن المازني، أحد بني النجار أن رسول الله ﷺ قال: من رجل ينظر لي ما فعل سعد بن الربيع أفي الأحياء هو أم في الأموات؟ فقال رجل من الأنصار: أنا.

فنظر فوجده جريحًا في القتلى وبه رمق، قال: فقال له: إن رسول الله ﷺ أمرني أن أنظر أفي الأحياء أنت أم في الأموات.

فقال: أنا في الأموات، فأبلغ رســـول الله ﷺ ســـلامي وقل له: إن سعد بن الربيع يقول لك: جزاك الله عنا خير ما جزى نبيًا عن أمته.

وأبلغ قومك عني الســـلام وقل لهم: إن سعد بن الربيع يقول لكم: إنه لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى نبيكم وفيكم عين تطرف! قال: ثم

(١) تاريخ دمشق (٣٢/ ٩٨)، وحلية الأولياء (١/ ٢٦٢).

لم أبرح حتى مات وجئت النبي ﷺ فأخبرته خبره[١].

وفاة عُبَادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

عن عبادة بن محمد بن عبادة بن الصامت قال: لما حضرت عبادة الوفاة قال: أخرجوا فراشي إلى الصحن -يعني الدار- ثم قال: اجمعوا لي موالي وخدمي وجيراني ومن كان يدخل علي. فجمعوا له فقال: إن يومي هذا لا أراه إلا آخر يوم يأتي عليَّ من الدنيا وأول ليلة من الآخرة، وإني لا أدري لعله قد فرط مني إليكم بيدي أو بلساني شيء، وهو - والذي نفس عُبَادة بيده - القصاص يوم القيامة، وأُحرِّج على أحد منكم في نفسه شيء من ذلك إلا اقتص مني قبل أن تخرج نفسي، قال: فقالوا: بل كنت والدًا، وكنت مُؤَدِّبًا، قال: وما قال لخادم سوءًا قط، فقال: أغفرتم لي ما كان من ذلك؟ قالوا: نعم. قال: اللهم اشهد. ثم قال: أما لا فاحفظوا وصيتي، أُحرِّج على إنسان منكم يبكي عليَّ، فإذا خرجت نفسي فتوضؤا وأحسنوا الوضوء ثم ليدخل كل إنسان منكم مسجدًا فيصلي ثم يستغفر لعُبادة ولنفسه؛ فإن الله تبارك وتعالى قال:

﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ ثم أسرعوا بي إلى حفرتي ولا تتبعني نارًا[٢].

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير (٣/ ٧٨)، والبداية والنهاية (٤/ ٤٤).

(٢) تاريخ دمشق (٢٦/ ٢٠٤).

وفاة محمد بن إدريس الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ

دخل المزني على الشـــافعي رحمة الله عليهما في مرضه الذي توفي فيه فقال له: كيف أصبحت يا أبا عبد الله؟

فقال: أصبحت من الدنيا راحلًا، وللإخوان مفارقًا، ولسوء عملي ملاقيًا، ولكأس المنية شـــاربًا، وعلى الله تعـــالى واردًا، ولا أدري أروحي تصير إلى الجنة فأهنيها، أم إلى النار فأعزيها، ثم أنشأ يقول:

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي	**جعلت رجائي نحو عفوك سلما**
تعـاظـمني ذنـبي فلـما قـرنـته	**بعفـوك ربي كان عـفوك أعظـما**
فما زلـت ذا عفـو عن الذنـب	**لم تزل تجـود وتعفـو منة وتكرما**
ولولاك لم يغوي بإبليس عابد	**فكيف وقد أغـوى فيك آدما**[1]

وفاة عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ

ولما حضرت عمر بن عبد العزيز الوفاة دخل عليه مســـلمة بن عبد الملك فقال يا أمير المؤمنـــين إنك قد فغرت أفواه ولدك من هذا المال فلو أوصيت بهم إليَّ وإلى نظرائي من قومك فكفوك مؤونتهم فلما سمع مقالته

(١) تاريخ دمشق (٥١/ ٤٣٠)، وسير أعلام النبلاء (١٠/ ٧٦)، وتاريخ الإسلام (١٤/ ٣٤٠).

قال أجلسوني فأجلسوه فقال قد سمعت مقالتك يا مسلمة أما قولك إني قد أفرغت أفواه ولدي من هذا المال فوالله ما ظلمتهم حقًا هو لهم ولم أكن لأعطيهم شيئًا لغيرهم وأما ما قلت في الوصية فإن وصيي فيهم:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

وإنما ولد عمر بين أحد رجلين إما رجل صالح فسيغنيه الله وإما غير ذلك فلن أكون أول من أعانه بالمال على معصية الله ادع لي بنيَّ فأتوه فلما رآهم ترقرقت عيناه وقال بنفسي فتية تركتهم عالة لا شيء لهم وبكى يا بنيَّ إني قد تركت لكم خيرًا كثيرًا لا تمرون بأحد من المسلمين وأهل ذمتهم إلا رأوا لكم حقًا يا بنيَّ إني قد مثلت بين الأمرين إما أن تستغنوا وأدخل النار أو تفتقروا إلى آخر يوم الأبد وأدخل الجنة فأرى أن تفتقروا إلى ذلك أحب إليَّ قوموا عصمكم الله قوموا رزقكم الله[1].

ولما حضرت عمر بن عبد العزيز الوفاة كان عنده مسلمة بن عبد الملك وزوجته فاطمة والخصي فقال:

قوموا عني فإني أرى خلقًا ما يزدادون إلا كثرة ما هم بجن ولا إنس قال مسلمة فقمنا وتركناه وتنحينا عنه وسمعنا قائلًا يقول:

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز (ص: ١٠١).

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ ثم خَفَت الصوت فقمنا فدخلنا فإذا هو ميت مغمض مُسجَّى[1].

• • •

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز (ص: ١٠٢).

الفهرس

الموضوع الصفحة

إيقاظ القلب أولًا.....٥
ليلة في القبر.....١١
حســرات.....٢٣
مشاهدات.....٣١
حلم العودة.....٣٧
من أخبار المحتضرين.....٥١
الفهرس.....٦٥